

الأستاذ عبد الحميد العبادي

أستاذ التاريخ الإسلامي وعبد الكلية لسابق

بقلم جمال الدين السيل

أستاذ جليل ومؤرخ محقق ، من الطلائع الذين أقاموا الجامعة والحياة الجامعية في مصر على أسس قوية قديمة .

من أبناء الإسكندرية : ولد فيها سنة ١٨٩٢ وأتم علومه الابتدائية والثانوية في مدارسها ، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا وتخرج فيها سنة ١٩١٤ .

وكان منذ شبابه الأول فوئاقاً للأدب ، يحفظ كثيراً من الشعر العربي القديم ويرويه . وكانت منتديات الاسكندرية الأدبية تجمع بينه وبين أصدقائه ولدياته من أدباء الثغر وشعرائه ، من أمثال : عبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم مصطفى ، وعبد اللطيف النشار . والمرحوم الأستاذ الشاعر حسن فهمي .

وأثناء تلقيه العلم في مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة عقد أواصر الصداقة مع نخبة ممتازة من زملائه في المدرسة وفي المدارس العليا الأخرى : وجمعت بين هذه النخبة عوامل كثيرة من الألفة والصداقة والمشاركة في الميول والأحاسيس والآمال والأهداف ، فقد كانوا جميعاً من عشاق المعرفة ومحبي البحث والاطلاع ، وكانوا جميعاً من أصدق الشبان في ذلك الوقت ووطنية ، وأشدهم تعقلاً بالمثل العليا ، يكفي أن نذكر منهم المغفور لهما الأستاذان : أحمد يوسف الجندي ، وأحمد أمين . والأستاذ محمد فريد أبو حديد ، والدكتور محمد عبد السلام الكرداني ، والأستاذ أحمد حسن الزيات ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والأستاذ أمين مرمي قنديل ، والدكتور أحمد زكي ، وسيدكر المؤرخون عندما يكتبون تاريخ مصر في النصف الأول من تاريخ القرن العشرين أن هؤلاء الرجال الأفذاذ كانوا الطلائع في ميادين الجهاد الوطني القومي وميادين النهضة العلمية الثقافية الحديثة .

ولست أعرض هنا لجهادهم في ميادين النضال القومي ، فليست أعرف من أسرارها إلا القليل ، وحيداً لو أقدم الأستاذة الأحياء من هؤلاء الصلائح .. وبخاصة أستاذنا الأديب المؤرخ الكبير محمد فريد أبو حديد - على تدوين مذكراتهم عن تاريخ مصر في هذه الحقبة ، ولكنني سأعرض هنا في إيجاز لجهود هؤلاء الرجال الأجداد في سبيل النهوض بمصر علمياً وثقافياً .

كان هؤلاء الثغر من شباب مصر يجتمعون بعد الفراغ من دراستهم في منزل واحد منهم ، وتدور بينهم المناقشات ، وكانت كنفها تدور حول مصر ووسائل النهوض بها ، وإذا كانوا جميعاً من رجال العلم والتعليم ، ومن طلبة المعلمين العليا والأزهر والقضاء الشرعي فقد انتهت بهم المناقشات إلى التفكير في إنشاء لجنة لوضع كتب علمية حديثة يسهلون بها في إرساء النهضة الثقافية المصرية على قواعد سليمة ، وأسست اللجنة سنة ١٩١٤ ، وأسموها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت لجنة موفقة فقد كانت أول لجنة مصرية ثقافية يكتب لها التوفيق والبقاء والاستمرار ، وظلت سنوات طويلة وهي مصدر إشعاع فكري واسع المدى ، لاقى مصر وحدها ، بل في العالم العربي والإسلامي كله ، وقد كان الأستاذ العبادي - رحمه الله - واحداً من بناة هذه اللجنة ومؤسسيها والعاملين على نجاحها ، بل لقد كانت الاجتماعات الأولى التي تمخضت عن مولد هذه اللجنة تعقد في المنزل المتواضع الذي كان يقيم فيه عبد الحميد العبادي الطالب بمدرسة المعلمين العليا .

ثم أمهم الأستاذ العبادي فيما بعد في نشاط هذه اللجنة العلمي ، فأخرج عدداً من الكتب كانت كلها من مطبوعات اللجنة ، نذكر منها :

المسألة المصرية لروستين ، وقد اشترك في ترجمته إلى اللغة العربية مع الأستاذ محمد بدوان .

وكتاب نقد النثر المنسوب لقدامة ، وقد اشترك في نشره والتقديم له والتعليق عليه مع الدكتور طه حسين .

وكتاب علم التاريخ لهرنشوف وقد ترجمه عن الإنجليزية وأضاف إليه بقلمه فصلاً فيها عن التاريخ عند العرب .

وقد بدأ الأستاذ عبد الحميد العبادي حياته العلمية بالعمل في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ثم عُيِّنَ أستاذاً للتاريخ في مدرسة القضاء الشرعي ، وشارك في النهوض بها مجموعة من أعلام الفكر في مصر وقتذاك ، في مقدمتهم المغفور لهم عاطف بركات ، وأحمد أمين ، والشيخ محمد الحضري .

وتتلمذ عليه في هذا المعهد عدد ممن تولوا قيادة الفكر في مصر بعد هذا ، من أمثال : الدكتور عبد الوهاب عزام - والأستاذ أمين الحولي ، وعندما افتتحت الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ أختير الأستاذ العبادي ليكون أستاذاً للتاريخ الإسلامي بكلية الآداب ، ثم اتسع نشاطه بعد ذلك ، فندب للتدريس في مدرسة دار العلوم ، وفي الجامعة الأزهرية . وفي دار المعلمين انغاليه ببغداد .

وعند إنشاء جامعة الاسكندرية في سنة ١٩٤٣ عين الأستاذ العبادي عميداً لكلية الآداب وأستاذاً للتاريخ الإسلامي بها : وأحيل الأستاذ للمعاش في سنة ١٩٥٢ ، ولكنه ظل كعادته موفور النشاط ، فكان يلتقي محاضراته في جامعة عين شمس ، وفي معهد الجامعة العربية للدراسات العليا ، واختير في هذه الأثناء عضواً بالجمعية المصرية للغة العربية ، وكان في كل هذه المناصب مثال الرجل المخلص في عمله ، حريصاً على أداء الواجب بمباداته ودراساته ، لا تلهيه الأعمال الإدارية - على كثرتها - عن دروسه ومحاضراته .

وقد بدأت أتتلمذ عليه منذ نحو عشرين سنة ، ثم كنت أقرب تلاميذه إليه ، كنت أحبه وأقدره ، وكان يبادلني حباً ومحبة وتقديراً وتقدير . وأشهد أنه كان - رحمه الله - الأب الرحيم لكل تلاميذه والعاملين معه ، يعطف عليهم ، ويوجههم الوجهة الطيبة ، وقد تخرج على يديه المئات بل الألوف ، أجيال بعد أجيال من التلاميذ ، وليس من بينهم إلا من يذكره بالخير والاحترام والتقدير ، يعرفون له علمه الغزير ، ويقدرون لهُ روحه السمحة ، وخلقته الكريم ، وأمنوبه العف . وهدوءه الوقور ، واثرائه الحكيم .

أما العبادي المؤرخ فليس يعرفه غير زملائه وتلاميذه في مصر والعالم العربي الإسلامي ، فقد كان التاريخ قبله رواية تروى - أو قصة تحكى ، أو نكتة تقال ،

أو بيتاً من الشعر ينشد؛ وكان العبادي أول من ارتفع به إلى مرتبة العلم، فجعله فكرة تمحّص، وتحليل، ونقدًا. ومقارنة. ودواصة دقيقة، على أسس ومناهج علمية ثابتة، فإذا كان في مصر اليوم من يفهم التاريخ الإسلامي حق فهمه، ومن يجيد بحثه ودراسته، فإن الفضل الأكبر في هذا إنما يرجع إلى العبادي وطريقته وجهوده .

وإلى هذا كله كان العبادي يمتاز بأسلوب أدبي رفيع رصين، فارتفعت بحوثه ومقالاته التاريخية إلى مستوى لا يستطيع أن يرقى إليه الكثيرون. ولا يزال الشبان والكهول في مصر والعالم العربي يذكرون بحوث الأستاذ التاريخية التي كان ينشرها في مجلتي الرسالة والثقافة، ثم في مجلات الجامعات العلمية، وكلها كانت تصحح خطأ، أو تكشف غامضاً، في أسلوب تحليلي متعمق، وفي طريقة مقارنة، وقد جمعت هذه المقالات ونشرت بعد ذلك في مجلدين بعنوان : « صور من التاريخ الإسلامي » .

وقد عرف العبادي المؤرخ خارج مصر فقلده الجميع أحسن تقدير، عرف له المؤرخون الأوروبيون وكبار المستشرقين مكانته وعلمه. فكان صديقاً لهم جميعاً، وانتدبه العراق للتدريس في دار المعلمين العالية ببغداد، وكان له هناك تلاميذ كثيرون لازالوا يذكرونه بالخير. وأختير عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وسافر إلى استانبول مع زميله أحمد أمين لدراسة المخطوطات العربية بمكتباتها. وزار أسبانيا أكثر من مرة لدراسة الآثار الأندلسية الإسلامية؛ ولا غرو فقد كان الأستاذ العبادي أول من أدخل دراسة تاريخ المغرب والأندلس في الجامعات المصرية، وظل يدرس هذا التاريخ طوال سنين إقامته؛ كما أسهم - رحمه الله - في تمثيل مصر عدة مرات في مؤتمرات علمية دولية في إيران وفرنسا وأسبانيا. وعرف له المجمع اللغوي مكانته كمؤرخ وأديب، فانتخبه عضواً به، وكانت له بحوث قيمة، لعل أهمها وأطرفها البحث الذي ألقاه عن كتب الحبة وأهميتها لدراسة المصطلحات والألفاظ اللغوية .

وعندما أسست الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ سنوات انتخب الأستاذ العبادي عضواً بمجلس إدارتها، وظل يسهم بنشاطه في العمل على النهوض بها إلى أن اشتد به المرض في انعام الماضي فقدم استقالته من هذه



المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي

١٨٩٢ — ١٩٥٦

أستاذ تاريخ الإسلام ودراسة كتب الآداب السنية

العضوية ، لأنه كان لا يرضى دائماً إلا أن يكون عضواً عاملاً ، فلما رأى أن المرض يحد من نشاطه آثر أن يفسح الطريق لغيره ، وإلى هذا كله كان الأستاذ العبادى عضواً فى مجلس إدارة جمعية الشباب المسلمين بالاسكندرية .

والحقيقة أن الباحث لا يستطيع أن يحصى أوجه النشاط التى شارك فيها الأستاذ العبادى ، فقد كان - رحمه الله - مجاً للعمل مخلصاً فى أدائه ، ويكفى أن نقول أنه شارك مشاركة فعالة فى معظم اللجان التى كانت تبث السياسة التعليمية والثقافية فى الجامعات ، وفى وزارة التربية والتعليم ، وفى الجمعيات والمعاهد والمحافل الثقافية المختلفة .

وظل الأستاذ العبادى مقبلاً على العمل والانتاج حتى آخر لحظة من حياته ، فعلى الرغم من اشتداد المرض به فى السنة الماضية أتم كتاباً جديداً عن « العنصرية فى الإسلام » تقوم بطبعه الآن هيئة البرنسكو ، كما حقق جزءاً من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى الذى تنشره جامعة الدول العربية ، كما راجع كتاب الحضارة الإسلامية للحروبناوم الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ عبد العزيز جاويد ، ونشرته إدارة الثقافة بوزارة التربية .

ومنذ نحو ستة شهور اشتد المرض بالأستاذ فسافر - رحمه الله - إلى لندن ، وبقى فى أحد مستشفياتها ثلاثة أشهر ، ثم عاد ، ولكن العلة كانت أقوى من جسمه .

وفى الثالث من أغسطس الحالى بلغ الكتاب أجله ، وأرتفعت روحه ، إلى بارئها بعد هذا النضال الطويل الشاق فبكاه آله وأصدقائه وتلاميذه وكل من عرفه .

فرحم الله العبادى رحمة واسعة بقلدر ما بذل فى سبيل العلم والوطن والعروبة والإسلام .

الاسكندرية أغسطس ١٩٥٦